آفاق نجفية

مجلة فصلية مصورة تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة
المتخصصة بشؤون النجف الأشرف

١

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

المساجلات الأدبية والظرف
في مجالس أدباء النجف

ـ ١ ـ

الاستاذ: محمد حسين المحتصر *

الجزء الاول
من مجالس جماعة الرابطة الأدبية

المقـــــــدمة

عندما يتشظّى القلبُ حباً أو ألماً وحتى فكاهة أحياناً يعود الأديبُ فيلملمُ ما تناثر من جراحه ليصوغها قصيدةً ، أو مقالةً ، أو ذكرياتٍ أدبية تنقلك مفرداتها إلى عالمه الخاص، ومعاناته في حياته، حتى لتكاد تلمس نبضات قلبه وشفافيّة روحه من خلال اختياره للكلمات التي يستعملها في حديثه.

وهكذا كان اديبنا النجفي في حاضره وماضيه، مرهفَ الحسّ، مشبوبَ العاطفة، سخيّ العطاء الأدبي، على الرغم من كونه عاش محاصراً بما سيّجهُ على نفسهِ من أعراف وتقاليد حرمتْهُ من ممارسة أبسط مباهج الحياة ومعايشتها مثل غيره من الناس ، واضطرّته لأن ينكفأ على نفسهِ وينطوي على ذاته ليدفنَ همومه وأحزانه تحت ركامٍ من قصائد الغزل، وسيلٍ من المداعبات والطرائف والمفاكهات الأدبية والمساجلات الاخوانية .

وقد طاب لي منذ زمنٍ بعيد أن أتابع مسار حياته لا سيما في مجالسه الأدبية الخاصة التي هي اصدق من يتحدث إلينا عنه ، ويكشف لنا عن خصائص أدبه، فكانت حصيلة رفقتي الطويلة معه هذه الصور الممتعة التي تصوّره في بعض مواقفه من حضور البديهة، وسرعة

---

* أديب، شاعر، صحافي نجفي، رئيس اتحاد أدباء النجف سابقا.

الخاطر واكتمال العُدّة الأدبية التي هي ذخيرته في مجلسياته ، مضافا إلى أنّ لمدينة النجف بالذات تأريخا علمياً وأدبياً يهمّ بعض الناس أن يقفوا عليه قليلاً أو كثيراً ، وأحسب أن ما كتب عنه من أبحاث وما أُلّف فيه من كتب يسد حاجة من يطلبون ذلك، غير أن ناحيةً واحدة قد أغفلتها الاقلام ولم تتناولها الا عرضاً تلك هي مجالس النجف الأدبية الخاصة، وما كان يدور فيها من مساجلات ومطارحات قد لا تجد لها نظيراً الا في القليل من مجالس الأدباء الأخرى، لا سيما فيما يخصّ سرعة البديهة، وقوة العارضة، في استحضار النكتة الأدبية والأجابات الطريفة المستحسنة.

والسبب في ذلك الاغفال على ما أظن هو كون أغلب تلك المساجلات والمطارحات غير متوفرة في متناول أيدي الكتاب لم يحوها كتاب، أو يجمعها سفرٌ خاص، وانما هي حكاياتٌ وأبياتٌ متناثرة هنا وهناك تتداولها الألسن، وتأتي بها المناسبة ليُندّى بها الحديث، ويُستظرف الحوار ثم تأخذ طريقها إلى النسيان ، والأهمال وقد تكون هناك أسبابٌ اخرى لستُ بصدد البحث عنها ، وكيفما كان فقد وجدت في نفسي رغبةً ملحة في التصدي لتلك المجالس بمتابعة ما يدور فيها مما شاهدته أو سمعته من غيري، أو شاركت فيه مشاركة فعلية، فكانت هذه المجموعة من الطرف الأدبية التي يسرّني أن أقدّمها إلى القراء الكرام كجزءٍ مضاف إلى الكل الذي كتب عن هذه المدينة ، وسأبدأ بمجالس جمعية الرابطة الأدبية كجولةٍ أولى، حيث كانت تلك المجالس ذات نكهة خاصة بالقياس إلى بقية مجالس المدينة ومنتدياتها ، إذ كانت تظم طليعة أدباء وشعراء النجف في ذلك الوقت ، وسأنتقل بعد ذلك في جولاتٍ ثانية وثالثة ضمن مجالس النجف الأخرى في الاجزاء القادمة من هذا الكتاب ما أتسع لنا مجال الحديث عنها.

والحديث عن جمعية الرابطة الأدبية في النجف يجرنا إلى الحديث عن الصراع بين القديم والحديث في الأدب وغير الأدب ايضا، وهو صراعٌ أزلي ومشروع أحيانا لا يقتصر على عصرٍ واحد، ولا على أمةٍ واحدة، فما دام هنالك قديمٌ وجديد يقتادان المسؤولية في ادارة شؤون الحياة، فلا بد من جديدٍ يخلف قديمه، وقد يكون لدى الجديد تطلعٌ أو اندفاعٌ لا يرتضيه القديم مما يسبّب ذلك الصراع أو التنافس فيما بينهما، ويتكرر بتكرار العصور والايام، وهو بالنسبة إلى الأدب سرُّ حياته وتطوّره.

وقد كان في النجف شأنها شأن بقية المدن الأخرى التي تعنى بالشؤون الثقافية صراعُ بين قديم الأدب وحديثه، سنأتي في مكانٍ آخر من هذا الكتاب على ذكره، وربما كان تأسيس تلك الجمعيّة من إفرازاتِ ذلك الصراع، أو تعبيراً عنه، فقد وجد بعض الشباب انفسهم بحاجةٍ

إلى مؤسسة تَلِمُ شتاتهم ، وتكونُ وسيلةً للتأكيد على وجودهم فتقدموا بطلب أجازتها، وفتحت أبوابها بتأريخ ١٩٣٢/٩/٣٠م واذا ما علمنا انه كان من بين مؤسسيها المرحوم الشاعر الشيخ صالح الجعفري الذي وقف ذات يوم في مجلسٍ حاشدٍ من مجالس النجف الأدبية ، وخاطب المحافظين من شيوخها قائلا:

تبعناكم على خطأٍ سنينا وأسفرت الحقيقة فأتبعونا

ووقف مرةً ثانيه أمام موكب الحجاج الذين كانوا يوم ذاك يتجمّعون في النجف ويسافرون إلى مكة عن طريق الحج البري، وقف أمام ذلك الحشد الغفير وأستعرت حماسته وشرع يخاطبهم قائلا:

حجّوا فلَستُم بالغينَ يحجّكمْ شرفَ الهنودِ

حجّوا إلى أستقلالهم، وحججتم خوف الوعيد

وعبادة الأحرار خيرٌ من ضراعات العبيد

أقول: اذا ما علمنا ذلك نكون قد أدركنا موقع تلك الجمعيّة من نفوس المحافظين من شيوخ ذلك الزمان، وموقع الجعفري وأمثاله ممن سيَردُ ذكرهم ايضا كان الجعفري هذا احد مؤسسيها،وكان الشاعر المرحوم عبد الرزاق محي الدين (الدكتور بعدئذٍ) ايضا ، وعبد الرزاق كان هو الآخر لا يقلُ عن صاحبه جرأة وأندفاعاً وصراحة في التعبير عن مكنونات نفسه هذا دون ان يحسب حساب الرأي العام وضرورة مداراته اذ لم يكن متحرّجاً في شبابه ولم يتعوّد أن يخاطب الناس بأبن عمّ الكلام كما اصبح شأنه فيما بعد،

وقد يصّح هنا أن نتخذ دليلاً على جرأته الأدبية واندفاعه للاّ محدود نظمه لتلك القصيدة الشهيرة (كرة ألسلّه) التي أحدثت في وقتها ضجة عنيفة في الوسط النجفي، وأتهم بسببها بما أتهم فيه، وكادت تطوّح بسمعته الاجتماعية ومن خلاله بالجمعيّة التي كان هو احد مؤسسيها مضافا إلى قصيدة له ثانيه اثارت عليه القوم هي الأخرى فأتهموه بالمروق عن الدين وكان عنوان تلك القصيدة (أحلام اليقظة) وقد جاء فيها قوله:

أحاديث يوُحيها الخيال مبلّغاً الا انما تلك الاحاديث بهتانُ

ارى دين عيسى مثل دين محمدٍ ولكنّ هذا الاختلاف لمن دانوا

هما شرّعاً دين المؤآخاة بيننا وكلُ بني الإنسان في الارض أخوان

ان مثل هذا الكلام قد يقوله الإنسان في هذه الايام دون أن يجد من يعقب عليه أو يستنكره، غير انه في مثل ذلك الوقت وفي مدينة مثل مدينة النجف فأنه الكفر بعينه، ولو لا الاطالة لذكرت القصيدتين وهما منشورتان ضمن ترجمته في الجزء الخامس ص ٣٩٠ من كتاب شعراء الغري لمؤلفه المرحوم الشيخ على الخاقاني يمكن الرجوع اليهما لمن يرغب في الاطلاع عليهما،

وكان من بين أعضائها المؤسّسين ايضا الأديب محمد حسن الصوري، والصوري هذا كان هو الا خر أكثر تطرفاً واندفاعا من صاحبيه الآنفي الذكر وقد فصل من الجمعيّة بعدئذ بسبب من تطرّفه ، فعلّق بعض المشائخ على قرار فصله ساخراً بالجمعيّة وبه معاً قائلاً (ويلٌ لمن كفّرهُ النمرود) .

هذه التشكيلة من الشباب كانت بالنسبة إلى النجف يوم ذاك ثورةً ما بعدها ثورة استطيع ان أجزم ان النجف كلها كانت على استعداد لأن تقف ضدّها لولا وجود بعض الاشخاص الاخرين المعتدلين من أمثال المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي، والسيد محمود الحبوبي، والشيخ محمد جواد الشيخ راضي والسيد عبد الوهاب الصافي، ومحمد علي البلاغي ، والا لطارت الجمعيّة في مهبّ الريح قبل أن تجد لها مستقراً ومكاناً في النفوس.

وتقدم الزمن، وبدأ الشباب ينتمون إليها، ويدخلون في هيأتها الادارية، ويصرفون شؤونها، وقد تهيأ لها فيما بعد أن تؤدي رسالتها على أكمل وجه وأتمّه، وأعترف لها الجميع بأنها كانت وجهاً ناصعاً للنجف في حينه، وأستمرت مواسمها الأدبية ومهرجاناتها الشعرية طوال الخمسين عاماً من حياتها، فما مر عليها عامٌ إلا وكان لها موسم أدبي متميّز وكانت مشاركتها في المناسبات القوميّة والوطنيّة مع كل حدثٍ يمرّ بالوطن العربي من محيطه إلى خليجه ، وذلك من خلال ندواتها ومطبوعاتها التي صدرت منها :

الفلسطينيات، وجهاد المغرب العربي، والجزائر المجاهدة، و١٤ تموز في الرابطة، وديوان الشيخ محمد رضا الشبيبي، وديوان الشيخ محمد علي اليعقوبي، وديوان السيد محمود الحبوبي، وأربعة مجاميع شعرية أخرى لكلٍ من الشعراء صالح الظالمي، وجميل حيدر، وعبد الرسول البرقعاوي، ومؤلف هذا الكتاب مضافاً إلى ما صدر عنها في آخريات أيامها من مجلتها (الرابطة) ولمدة ثلاث سنوات.

وكانت بالاضافة إلى ذلك ملتقى الوفود الأدبية والسياسية التي تقصد العراق وتزور النجف، فتقام لها حفلات الاستقبال، والندوات الأدبية حيث يرتجل الشعر أرتجالا وتنشد

القصائد والمطوّلات الشعرية، ويندى الحديث ويعطر بالظرف والنكت الأدبية، وبما عرف به الاديب النجفي من حضور البديهة، وسرعة الخاطر، وتصديه لأقتناص النكتة وحسن صياغته لها ،

وياطالما التقينا فيها بوجوهٍ لا تزال ذكراها عالقةً في نفوسنا من أمثال الحبيب أبو رقيبه، والحاج أمين الحسيني، وعبد الوهاب عزام، واحمد أمين، واحمد حسن الزيات وزكي مبارك وعبد الرزاق السنهوري وغيرهم من عمالقة الأدب والسياسية في الوطن العربي ومن الملوك الملك عبد الله، والملك فيصل الاول، والملك غازي، وملك اليمن، ومن الساسة العراقيين ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ، ونوري السعيد وصالح جبر ومحمد مهدي كبّه، وجعفر أبي التمنّ ، وفاضل الجمالي ، وسعد صالح وغيرهم.

وكان مجلس الشيخ اليعقوبي، ومجلس السيد محمود الحبوبي، من ألذ المجالس التي كانت تعقد فيها، وأكثر متعةً وطرافة، حيث كنّا نحن الشباب نتحلق حولهما ونلتقط ما يتناثر من حديثهما، من نكتة أدبية، إلى بيت شعر طريفٍ، إلى فكاهة مستملحة ، وقد سبق لي أنا الاخر ان وصفت مجلسهم ذاك بأبياتٍ ضمن قصيدةٍ كتبتها في رثاء استاذنا الجليل الشيخ صالح الجعفري والقيتها في حفل تابينه الذي أقامته الجمعيّة في مقرّها، وكان من بعض ما جاء في تلك القصيدة هذه الابيات:

كنّا اذا ما العيشُ ضاق بنا ... أو فاضَ منّا الكأس بالقرفِ

وحياتنا كانت ومعظمها ... ضيق تراه بكلِ منعطفِ

نأوي لها شغفاً بأهلها ... فتزيدنا شغفاً على شغفِ

فترى النديَّ يموجُ سامرُهُ ... وذوى النهى كتفاً إلى كتفِ

وبكلمةٍ تلقى، ومن خبرٍ ... يروى، وهمسٍ في الحديث خفي

وقصيدةٍ عصماء خالدةٍ ... تغزو النديَّ لشاعرٍ دنفِ

دنياً من الآداب تنقلها ... الاجيال، من سلفٍ إلى خلفِ

تلك المجالس وهي عامرةٌ ... كانت مجال أديبنا النجفي

إن شئت جِداً كنت واجَدهُ ... واذا مزحت فدونما سرفِ

ينمو على الايام شاعرها ... عفواً بلا دعوى، ولا صلفِ

تلك هي صورة خاطفة عن بداية تأسيس تلك الجمعيّة في أوائل أيامها، ومما تجدر الاشارة إليه بأنني في هذه الجولة مع ما تبقى في ذاكرتي من تلك الايام لا أريد ان أؤرخ لهذه الجمعيّة وأعضائها تأريخا عاماً شاملاً فأن مجال ذلك غير هذا الحديث، وانما هي إلمامة بمجالس الظرف والمفاكهة الأدبية حين كان هؤلاء الناس يخلون لأنفسهم فيمرحون ويمزحون ويتساجلون كغيرهم من الناس حين ترهقهم أعباء الحياة فيحاولون التغلّب عليها بأستعمال النكتة الأدبية، وبالتندّر والتعليق حتى على أنفسهم أحياناً لا سيما عندما لا يجدون في مرماهم أحداً.

الحكاية الأولى

حدثني المرحوم صالح الجعفري استاذ الأدب العربي في ثانوية النجف وأحد المؤسسين لتلك الجمعيّة فتذكر جانباً من حياته ، ورفاقه الذين رحلوا، وكأنه أحسّ بأنه يسرع في اللحاقِ بهم، فأخذ يكثر من الحديث عنهم ، ويستعيد أيامه التي قضاها معهم ، ثم سألني قائلا:

سمعت انك مهتمٌ بمتابعة وتسجيل ما بقى في ذاكرتك من أيامنا في الرابطة الادبيّة ولئلا يفوتك شئٌ منها سأنقل لك حكايةً طريفةً بقيت في ذهني أنا الاخر من تلك الايام ، لعلها تفيدك في موضوعك هذا ، وشرع في سرد حكايته قائلا:

في ليلةٍ مدلهمّة عاصفة من ليالي الشتاء، أشتدّ فيها انسكاب المطر حتى كاد يُغرق المدينة، وكان عصفُ الرياح، وقصفُ الرعد يكادان يقتلعان جدران البيوت من أساساتها، كنا في تلك الليلة مجتمعين في الرابطة الأدبية وبعد ان أنتهت جلستنا الاعتيادية، وأزفّ موعدُ عودتنا إلى بيوتنا، خرجنا من البناية واذا بنا لم نكد نتبين طريقنا، فآثرنا العودة إليها، والبقاء فيها، ريثما يهدأ الجوّ، ويخفّ المطر.

وبعد ان طال انتظارنا بدون جدوى، وقارب الليل إلى نصفه، وكانت بيوتنا بعيدةً عن الجمعيّة ، وقد تعذّر علينا الوصول إليها بسهولة في ذلك الجوّ الرهيب، اقترح احدنا ان نذهبَ إلى أقرب بيتٍ نعرفهُ من اصدقائنا، لعلّنا نجد عنده بقيةً من عشاءٍ نتبلّغ به، ومكاناً دافئاً نستظل فيه، فوقع اختيارنا على بيت صديقنا التاجر (الحاج عبد الله الصرّاف) لأنه كان أقرب البيوت إلى الجمعيّة، ولأنّ صاحبه كان أقرب الناس إلى نفوسنا، فقصدناه تحت قصف الرعد، وأنهمار مياه المطر، واحتمال سقوط أحد الجدران علينا، وخضنا إليه الماء والطين إلى ان وصلنا إليه منهكين، وحين فتح الباب لنا فوجئ بزيارتنا في ذلك الوقت المتأخر من الليل وفي مثل ذلك الجوّ العاصف، وقبل أن نبدأه بالسلام التفت إليه الشيخ اليعقوبي وأنشد يخاطبه قائلا:

جئناك نسرعُ زائرينا تحت الدجى متسللّينا

جئنا وقد ملأ الغمامُ دروبنا ماءً وطينا
جئنا فهيّي مجلساً نرتادهُ حيناً فحينا

فَبَهُتَ الرجل، وحدق بنا في الظلام وقال:

يا ستار سترك .. ثم أردف قائلا: أهلا وسهلاً بكم ، تفضلوا.. وقبل أن ندخل إلى غرفةِ الاستقبال التفت إليه السيد محمود الحبوبي وقال:

أأبا عطارد... دام بيتك مجمعاً للسامرينا..
إن غبتَ عنا ساعةً زدنا إلى اللقيا حنينا

فأبتسم وهز رأسه قائلا:

- مضبوطْ .. (زدتم إلى اللقيا حنينا) لا سيما في هذا الوقت المتأخر من الليل، وفي مثل هذا الجو العاصف، ثم شرع في أستجوابنا قائلا:
- ما الذي أحوجكم إلى النزهة في مثل هذه الساعة؟!
- وأين كنتم إلى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟!
- أما خشيتم ان ينخسف بكم أحد السراديب، أو يسقط على رؤوسكم أحد هذه الجدران المتداعية؟!
- والذي هو أهم من ذلك كله، كيف تبنّيتم طريقكم اليّ في هذا الظلام الدامس؟!

فأجابه الشيخ محمد الخليلي على سؤاله الاخير قائلا:

كنا نسير بضوء شوقٍ ساقنا لك مسرعينا
خلت الدروب فما نشاهد غيرنا من عابرينا

وما هي الا لحظات، حتى حضرت صينيّة الشاي، فالتفت احدهم إليه قائلاً:

الشايُ أجمل ما يكون هديةً للزائرينا
لكنه قبل العشا ... يؤذي بطون الجائعينا

ولا أطيل عليك ـ والحديث لا يزال للجعفري فقد حضر العشاء بعد ذلك ، واصطف المشائخ على المائدة وبعد ان اكتفوا واطمأنوا ، إتكأ الحبوبي على الوسادة ، وطرح علينا السؤال التالي قائلا: من منكم يحفظ بقيّة هذه الابيات؟! انها لتعجبني كثيراً :

سقف بيتي حديدْ أسُّ بيتي حجر

فأعصـــفي يـــا ريـــاح وأنهمـــرْ يـــا مطـــرْ

وكأنه أراد أن يعبّر فيها عن أطمئنانه بضمان ليلته تلك إلى الصباح في ذلك البيت ، فأجابه الخليلي قائلاً:

- أنا لا أحفظها، ولكنني أستطيع ان أضيف إليها هذين البيتين، ثم أنشد :

ليـــت أنَّ الريـــاح ســوف تبـــقى شـهـــرْ

فـــأنـــا ههـــنا.... لا أحـــسُّ الخطـــرْ

وكان صاحبنا الحاج يصغي الينا، وهو يفكرّ متى سينتهي هذا السيلُ المتدفّق من الكلام المقفّى الموزون، وكيف يمكنه ان يشارك معنا فيه، وهو بعيدٌ بحكم إنشغاله بأعماله التجارية عن مثل هذه الأمور، ولكنّ بديهته لم تخنْهُ، فاذا به يعقّب على ما سمعه منّا بمثله، وكأنّ العدوى قد سرتْ إليه فقال:

أيـــها القادمـــــون..... نحـــونا فـــي المطـــر

كـــلّ فعـــلٍ لـــكم .... دائـــــما مبتكـــــر

كنـــت وحـــدي هـــنا جـــالسا والـضـجـــر

فتفـــضـــــلتموا..... يـــالحســـن القـــــدر

ســـوف يحـلو بكـــم ليلـــنا .... والـسَهَـــرْ

وكانت ليلةً نابغيّةً من أروع وأجمل لياليا التي عشناها وظلّتْ ذكراها عالقة في نفوسنا فترةً طويلة من الزمن.

الحكاية الثانية

سافر أحدهم مرةً إلى لبنان لقضاء فصل الصيف هناك، وكانت أول سفرةٍ له خارج العراق، ولأنه كان مصفّداً ببزّته الدينيّة ووقاره، ولم يشأ ان يتخلىّ عنهما، فقد عاش أيامه في لبنان وكأنه لم يخرج من النجف، ولم يفارقْ الرابطة، ولو سألناه في وقتها ماذا رأيت بلبنان في سفرتك تلك؟ وبمن ألتقيتَ هناك؟ لما كان جوابه أكثر من أنني صلّيتُ بالمسجد الفلاني،

وذهبت إلى المكتبة الفلانيّة والتقيت بعددٍ من المشائخ الذين كنت أعرفهم ، ممن كانوا يدرسون في النجف سابقاً ، فأنستُ بهم، وقضيت معهم وقتاً ممتعاً ،

وتشاء المصادفات ان يجد نفسه ذات يوم محاطاً بجوٍّ لبناني لم يعهدْ له مثيلاً في حياته، إذ بينما كان جالساً في حديقة الفندق، وحوله ثلةٌ من مشائخه هؤلاء، إذ دخل إلى الفندق سربٌ من الفتيات، وجلسنَ بالقربِ منهم، وكانت من بينهن فتاة ترتدي (البنطلون) وكان الناس يومئذٍ لم يألفوا بعد رؤية النساء بهذا اللباس.

فغضّ بعض المشائخ النظر عنهنّ ، و(حَوْقَلَ) بعضهم ، و(استرجع) آخرون، وغادر المكان قسمٌ آخر، متعوّذاً بالله ومبتعداً عن مواطن الريبة والشبهات، أما صاحبنا الرابطيّ فقد ظل مسمّرا في مكانه كاللوح لا يبدي ولا يعيد، وكان بين حين وأخر يختلس النظر اليهنّ، ويحدق أكثر فأكثر بصاحبة البنطلون، ثم أخذ يفلسف موضوعها في ذهنه، ويفكر في المكان الذي أخفت فيه (السر اللهيب)، ذلك أن البنطلون كان ضيقاً وملتصقاً على جسدها بشكل رهيب، وكان جسدها كما يقول المرحوم حسين مروان (اذا تحرّكت أو مشتْ يرتعش بطريقةٍ تخرج النار من الزناد) .

وظل صاحبنا طوال جلسته تلك يرتعش مع أرتعاش جسدها، ويطيل التفكير في المكان الذي ظلت عيناه تحومان حوله، وكان من ثمرة ذلك الموقف هذه الابيات التي أبتدأها بأستجوابِ طريفٍ مع صاحبته، وأنهاها بوصفٍ أكثر طرافةً لنفسه، ولما كان يعانيه من أغترابٍ وحرمانٍ في حياته بسبب من ارتباطه ببزته ، وضياعه في خضم تلك اللحى والذقون.

ولم يقم من مكانه ذاك حتى كانت القصيدة مكتملةً بما يشبه الأرتجال، وكأنما أوحي بها إليه إيحاءُ، ابتدأها والخطاب موجهٌ إلى صاحبة البنطلون ، قائلا:

فجرُ (عاليهْ) في جبينك أشراقٌ ... ولفح الصحراء في البنطلونِ
خبّريني.. أفي شمالك قد خبأت ... (سر اللهيب) أم في اليمين؟!
خبريني،، ولا تخافي، فأيّارُكِ ... في مأمنٍ لدى تشريني
لا يغرنّكِ أشتعال حديثي ... والتهاب الغرام حول جفوني
فثلوج الشتاء ترسبُ في أعماق ... نفسي، في حيرتي، في يقيني

وبعد أن وصل إلى هذا الحد ، وحيث لم يجدّ لديها جواباً على أسئلته ولم تلتفت إليه، أو تأبه به، إتجه بالخطاب إلى واحد من أخوانه في الرابطة، كمن يعزّي نفسه ، ويبرر إخفاقه في حياته العاطفيّة منسجماً مع طبيعته في اتخاذ المفاكهة والظرف وسيلةً للتعبير عن أدقّ أحاسيسه قال:

لم أزل يا (أبا رشاد[1]) كما تعهد ... من عفّةٍ، وتقوىً، ودينِ
حاملاً بين حاملي الورد رأساً ... صدق الله .. إنه من طينِ
وفؤاداً ولو رقتْ الصخرة الصماء ... ما أهتزّ نبضهُ بالحنينِ
وعيوناً .. لو أبدلوني عنها ... (بالصلابيخ) لم أقل ظلموني
فمتى يكرهُ العمايةَ طرفٌ ... لا يرى غير كالح العتنونِ

ثم يستمر في وصف مجلسه ذاك بين تلك المجموعة من مشائخه وكيف تحوّلت اجواء لبنان الجميلة، بفضل وجودهم فيها، إلى لونٍ آخر في نظره، لا أريد ان استعجل الشاعر بالأفصاح عنه قبل ان يستكمل عرض مقدماته عنه قائلا:

لو تراني، وشُمُّ لبنان طارت بي ... (ورويال) مركبي وسفيني[2]
صاعداً في الفضاء من فوق بيروت ... كأني من سرب (كاكارين)
غير أني طيرٌ جُناحاهُ من علمٍ ... وساقاه من وقارٍ ودينِ
أتهادى بمشيتي مثقل الخطو ... كأني أجرُّ عبء سنيني
عن يميني من تعرفون وعن يسراي ... من ذكر اسمه يؤذيني
فأحلنا لبنان، وهو جحيمٌ ... من خدودٍ، جنينةً من ذقونِ
هكذا زارت الكوليرةُ لبنان ... ولكن بجبّةٍ، وزبون

❖❖❖❖❖❖

(1) ابو رشاد : هو الشاعر المرحوم الحاج محمد صادق القاموسي.

(2) رويال: أسم الفندق الذي كان الشاعر نازلاً فيه / أما الشاعر فهو المرحوم السيد مصطفى جمال الدين الدكتور بعدئذٍ.

الحكاية الثالثة

وسافر آخر منهم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وبعد انتهائه من أداء الفريضة أعجبه ان يجعل طريق عودته على لبنان وتركيا لقضاء بعض الوقت فيهما، وأحسّ بمضايقة بزّته التقليديّة له فخلعها وأستبدلها بالسترة والبنطلون طالما هو هناك ليكون أكثر حريّة وانسجاماً في حركاته وتنقلاته من مكانٍ إلى آخر،

وقد أثار تصرّفه هذا تساؤلات بعض اصحابه وتعليقاتهم عليه، واقتناص المناسبة للتندّر معه ، وما ان عاد إلى النجف حتى كان الجماعة باستقباله، وجاء دور الشعر والمفاكهات الادبيّة حول أرتدائه السترة والبنطلون بدلاً من بزّته الدينيّة، ومقدار انسجامه مع بدلته الجديدة بعد تعريجه على تركيا ولبنان، إذ لا بد انه قد أراق بعض ما جمعه من ثوابٍ في مكة على شواطئ البسفور، وبلاجات بيروت.

غير أن الأهم من ذلك كله ، كان استفسارهم وتطلعهم لمعرفة الاسباب الحقيقيّة لحجّه ، وهل هي طاعةً خالصة لله ؟! أم لأمرٍ يتكتم عليه؟! ذلك ما ستلمسه في ثنايا تلك القصيدة التي استقبلوه بها ما زحين، حيث وقف أحدهم يرحب به ، ويحيّيه وبعد أداء مراسيم التحيّة المعتادة شعراً ، أستمرّ في القاء بقيّة أبياتها متسائلاً:

أخا الفضل قل لي كيف (دعبلك) التقى ... إلى بلدٍ وعر السليقةِ معوجّ

وقد كان عهدي أن ذوقك دوحةٌ ... تعاصتْ أعاليها على ثورةِ العجّ

ونحسبُك أعتدتَ الرضيَّ وشعرهُ ... فأغراك ان تحضى بأغيد ذي غُنْجِ

ولكنك أستقبلتَ أوجهَ معشرٍ ... أجلُّ رواءً منهم جلدةُ الخُرْجِ

فأخفقتَ في مسعاك بالخيفِ من منى ... وقد كان أولى ان تزور (علي الشرجي)

والجدير بالذكر أن صاحبهم هذا كان ينحدر من أسرة دينيّة فاضلة معروفة بأستقامتها وقدسيّتها ، وقد سبق لثلاثةٍ من أخوانه وأقربائه ان ذهبوا إلى مكة المكرمة، وعادوا منها كما ذهبوا إليها، قانتين مأجورين، دون أن يغيروا طريق رحلتهم، أو يستبدلوا بزّة غير بزّتهم ، أو يصلوا إلى أماكن ما كان من المناسب ان يصل إليها أمثاله، لذلك التفت إليه الشاعر، واراد ان يذكرّه بهذا المعنى، ويسأله لماذا خرج على نهجهم ، وكيف فرّط بالثواب الذي أكتسبه من حجّه ، جاء ذلك كله على سبيل المفاكهة والظرف الذي اعتادوه فيما بينهم، قال:

لقد حجَّ من أهليكَ صيدُ ثلاثةٌ ... وساروا جميعا في وضوحٍ من النهجِ

فلم يصنعوا في الدردنيل لحاهُم فرنسيّةً أو يلبسوا زيَّ إفرنج

ولم نر قبل اليوم مثلك حجيّاً أراقُ ثواب الحج في ساحة البُرْجِ

وكان احد المشائخ الفضلاء حاضراً في المجلس، وهو يصغي إلى حوارهم، ويتابع الاستماع إلى القصيدة بأهتمام، فأراد الشاعر أن يتظرّف معه فتوجه إليه بهذا السؤال قائلا:

ـ هل يسمح فضيلة الشيخ فيما اذا كان من المناسب لأمثال هذا الحاج ان يفعل ما فعل، وهو الرجل المتديّن المعروف؟! أفتونا مأجورين، فما كان من ذلك الشيخ الوقور إلى ان يبتسم، ويصدر فتواه ويصبّها بهذه الابيات الطريفة التي أرتجلها على البديهة من وزن وقافية أبياتهم قائلا: (والخطاب موجّه إلى صاحبهم الحاج).

اخا الفاضل لا يعنيك هذا الذي سمعت، فأن الراحَ تَحسُنُ بالمزجِ

وقد يفسد الماء الكثير مزاجها وصرفاً يضيقُ المرءُ من طعمها المجّ

وياليتنا كنا واياك عندما سعيتَ، وإذ مُتِّعْتَ بالأعين الدعجِ

❖❖❖❖❖❖

الحكاية الرابعة

وسافر آخر لأداء فريضة الحج ايضاً، كان في بداية حياته متسامحاً في أداء بعض فرائضه الدينيّة ، ثم هداه الله بعد ذلك ، وعاد إلى الطريق، راضياً مرضيّا، غير ان تلك الفترة من حياته ظلّ شبحها يلاحقه عند بعض اصحابه ، فكانوا يمزحون معه، ويذكرونه بها في كل مناسبة من المناسبات.

وحين عاد من الحج زاره هؤلاء يباركون له حجّه، وحُسن توفيقه، وبعد ان خلا المجلس، وتفرّق الناس، احتوشوه مداعبين ليذكروه بأيامه الأولى، وكيف تحوّل عنها بعد ان اهتدى وكان احدهم قد هيأ قصيدةً يتساءل فيها عما شاهده في مكة ، وما قام به من أعمالٍ وطقوسٍ هناك، وكيف كان شعوره، وهو يقف بين يدي الله في بيته الحرام، وكان غرضه من ذلك المداعبة والمفاكهة والظرف الذي تعّود معه من قبل قائلاً:

أرايت كيف يهرولون ويقرعون كؤوس زمزمْ؟!

ويرمُّدون بهامة الشيطان جمرهمُ المطهّم .....

أو مـــا استـــشاط أمـــا تحـــرّك للكمـــاة ... أمـــا تكـــلم ...؟!

وبكلمةٍ قـد بـاع جنّـة ربَّهـم مـــن دون مَنْـــدمْ .....

ويبدو ان مضمون القصيدة كان قد تسرّب إليه قبل القائها عليه، وعرف حتى وزنها وقافيتها، فتهيّأ هو الاخر للأجابة عليها، لذلك وبمجرد أن وصل الشاعر إلى قوله / أو ما استشاط؟ اما تحرك؟ حتى قطع عليه كلامه وأجابه بهذه الابيات كما لو كانت إجابته قد أسعفته بها بديهيته قائلاً:

لا .. مـــا أستـــشاط ولا تـــأذى أو (تـــضـــجور) أو تـــألمْ

بـــل إننـــي شـاهـــدته قد كـان يـضحك حـين يـرجمْ

أومـــى إلـــيَّ وقـــال لـــي أهـــلاً بـــصـاحبـنا تقـــدّمْ

أو لـــستَ مـــن أشياعـــنا؟! أو لـــستَ صـاحبنا المخـضرم؟!

أومـا أسـتحيت أتيـت ترجمنـي بنفـســك يـا أفنـــدم ؟!

واراد يفـضحني أمـام النـاس لـو لا أنـه اسـتثنى فغمـغم

لـــم أدر كيـــف إستلّـــني مـن ذلـك الجـيش العرمـرم

وفُضِحتُ، لـو لا رحمـة البـاري وهل غيـر الإلـه تظـن يـرحم

فبهت الجماعة من سرعة بديهيته ، ومن أستحضاره للأجابة شعراً بنفس الوزن والقافية، وبهذا النفس الطويل، والدقة في الاجابة.

ولكنهم بعد ان اكتشفوا الموضوع كان الطريق قد سدّ عليهم من الايغال بمداعبته ،وكشف ما استتر من أوراقه ، فضحكوا وصرفوا النظر عن قراءة بقيّة القصيدة، وأكتفوا بتهنئته على حسن عاقبته وسلامة عودته،

وشاعت تلك المداعبة الطريفة في وقتها، وحاولتُ الحصول على أصل القصيدة فوجدت في بعض أبياتها ما لا يستحسن نشره، وهذا بعض ما جاء فيها:

وقـــصرت رأســـك أم جبينـــك كـــن عـــذيري لـــست أعـــلم

لتفـوز بالأنهـار مـن خمـرٍ ونحـــن إلـــى جهنـــم

مـــاذا دهـــاك أهـــل تطرّبـــك التهيّـــسُ يـــا أفنـــدم

فركضت خلف الشنفري ... متـرجّلاً وعشقت مريم
وحلمت بالولدان حولك ... ينشدون نشيد (جمجمْ)
إنا لنقسم بالحريق.... ... يرفٌ من ردفٍ منعّمْ
ما كان ذلك منك عن تقوى ... وهل يغرى يلملمْ
لكن سمعت بنا هدٍ..... ... جاءت تصلّي بعد أن لم
فركضت ترفلُ بالشباك ... الماهرات وصحت (عَمْعَم)
يا للألله ... أهكذا ... ... يدعُ النجوم بدون سُلّمْ

❖❖❖❖❖❖

الحكاية الخامسة

وهناك أديبٌ آخر كان في شبابه ينحو منحى زميله هذا بالنظر إلى مثل هذه الأمور ، شأنه شأن كثيرٍ من الناس ممّن يعجبهم أن يتفلسفوا في بدايات تكوينهم الأدبي، حتى اذا ما انتهى بهم المطاف إلى طريقٍ مسدود عادوا على أعقابهم متعبين.

سافر هذا الاديب إلى مكة المكرمة ذات سنة سفرة لم يكن متوقعاً ومتهيأ لها، إذ انتدب على عجلٍ للسفر ضمن وفدٍ ارسلته الدولة إلى هناك، فأحرم ، وأعتمر ، ولبّى، وأدّى المناسك كلها وفقاً لما هو مطلوبٌ ومعمولٌ به.

وفي غمرة تلك اللحظات العرفانيّة أثناء طوافه بالكعبة حيث يقف المرء فيها بين يدي الله وجهاً لوجه، وجد نفسه خجلاً من نفسه، ومن ربّه في آنٍ واحد، اذ لم يكن متهيأ ـ كما قدمتُ ـ لمثل ذلك اللقاء العظيم، وتصوّر نفسه كمن يدعى لأحدى الحفلات الكبرى فيذهب إليها عرياناً، أو في ثيابٍ رثّة، حتى أستقرّ في ذهنه بأنه غير جدير لينال من ذلك الفيض السماوي.

وبينما هو غارق بهذا ومثله، طغت عليه روح الظرف المعتادة لديهم فكتب لواحدٍ، من أصحابه، في الرابطة ، هو الشاعر جميل حيدر (ابو وميض) رسالةً يصوّر له فيه ـ متظرّفاً ـ المصادفة الحسنة التي اختارته ، واوصلته إلى هناك، وما قُدّر له من أجرٍ وثوابٍ لم يكن يتوقّعه ، ثم ما قام به من أعمالٍ ومناسك ما كان يخطر بباله ان يقوم بها في يوم من الايام، جاء ذلك كله بقصيدة نظمها أثناء طوافه بالكعبة ، وأرسلها إليه مازحاً قال:

(أبا وميضٍ) أنت تعلمْ ... مالي بمكّة أيّ مغنمْ
ما كنت أحسبُ أنني ... يوماً بها أعنى وأهتمّ
لكن وصلت، وأنت تعرفْ ... قد يثاب المرءُ مرغمْ
هرولتُ حتى ضجّ ساقي ... وأشتكى الماً وورّم
وسعيت شأن سواي .. ... سبعاً أو ثلاثاً لست أعلم
ولقد صعدت على الصفا ... ولقد هبطت ببئر زمزم
ولقد وقفت أمامه ... خجلا فكان بأن تبسّم
ما قال لا تدنو اليَّ ... ولا تنكر أو تجهّم
بل كان أنبل من جميع ... ذقونهم خلقاً وأكرمْ
ما كان يقبلني لو أنَّ ... لديه رسّاً من (.....)
ولقد جمعت من الثواب ... بثقل ما يزن المقطمْ
إن لم يَقُدْني للجنان ... فقد يخفَّف من جهنم [1]

وبعد ان عاد النجف، تلقاه صاحبه (أبو وميض) بقصيدةٍ من وزن وقافية قصيدته هذه ، مستكثراً عليه يأسه من رحمة ربه، ومؤكداً له بأن ما جاء على لسانه بقوله (ولقد وقفت أمامه .. خجلاً) هو الثمرة المنشودة من وراء تلك المناسك كلها، والغرض الأسمى من تشريع هذه الفريضة ، ثم زاد على ذلك بقوله له :

يهنيك .. أنك بالضمير ... لثمتهُ، وسواك بالفم
فلأيّ شيءٍ رُحت تجهل ... سرَّ هَدْيك يا أفندم
وبحلم ذاكرة العشيرة ... كنت منذور المطهّم
هرولت من خجلٍ إليه ... على جوادٍ غير مُلّجم
وسرى بك الهمسُ المعنّف ... كالعبير سرى لبرعمٍ
فيكاد يضوي جانحيك ... جماله، وتكاد تضرم

---

(1) كان ذلك الحاج هو مؤلف هذا البحث.

هيهات ما غير الشعور الحّرِ حججٌ لـه، وأسلمْ

وتحول الموضوع بعد ذلك من مزاحٍ ومفاكهةٍ في بدايته، إلى تفهّمٍ وادراكٍ فيقينٍ وإيمان ، لأن الجذور كانت اقوى من أن تقتلعها هبات غبارٍ طارئةٍ.

والذي أود ان أؤكد عليه بهذه المناسبة، أن هذا اللون من ادبهم لا يعبر عن رأي يعيشه هؤلاء الناس اعتقاداً وسلوكاً كما هو ظاهر الحال فيه، ذلك أننا لو أمعنّا النظر فيما تنطوي عليه بعض فقراته، كقول الاول منهما (وفُضِحتُ ... لو لا رحمة الباري) وقول الثاني (ولقد وقفت أمامه.. خجلاً) لتبيّن لنا أمرهم واضحاً لاغبار عليه، ولو لا ولعهم بالظرف والمفاكهة لكانوا في غنى عن ذلك كله.

وكيفما كان فأنني لست بصدد الدفاع عنهم، أو الانتصار لهم بتأكيد صحة أيمانهم، وسلامة معتقداتهم ، وانما هي حقيقة احببت ان لا تفوتني الاشارة إليها، وتذكير القارئ بها لئلا يسيئ البعيدون عن اجوائهم الظنّ بهم ، فيذهبون بها إلى تفسيراتٍ شتى شأنهم شأن من قرأ خمريات الشاعر السيد محمد سعيد الحبوبي، الذي كان في وقته امام عصره فظنّ به الظنون، حتى ليقال ان احد تلاميذه سأله وهو على منبر الدرس هذا السؤال:

ـ ماذا تفيد (قد) اذا دخلت على الفعل الماضي؟! .

مشيرا إلى قول السيد (رحمه الله) ـ قد شربتُ الخمر لكن كلمأك.... الخ.

ذلك أن (قد) تفيد التحقيق اذا دخلت على الفعل الماضي، فتنبّه السيّد لغرضه ، وأجابه بعفويته وبراءته قائلاً:

ـ وحق جدّي ما شربتها.

لذلك أجدني مضطراً لأن أؤكد ـ فيما اعرفه من حياتهم ـ نزاهة القوم وعفّتهم ، وبعدهم عن كل ما يسيئ الظن بهم، وأن كل ما ورد ، أو يرد أثناء هذه الحكايات من شعرٍ وتعليقات حول بعض الالتزامات الدينيّة، والاخلاقية ، وما يدور في فلكها فأنه لا يعدو قول القائل منهم (عفّة النفس وفسق الألسن) .

❖❖❖❖❖❖

الحكـــاية الســـادسة

وهناك اديب آخر جاء إلى النجف من المملكة العربية السعودية لغرض الدراسة وكنّا قد عاشرناه فترةً طويلة من الزمن فحمدنا عشرته وكان من أبرز صفاته عنفوانه في شعره، وصلابته في عقيدته العربية،وتمرُّدُه على الكثير ممّا تعارف الناس عليه في زمانه وكان مما لا حظناه عليه ان عمامته كانت قلقةً على رأسه، وبعد أن أتمّ دراسته الدينيّة في النجف، وعاد إلى وطنه في السعودية، وجد نفسه مكبلاً بتقاليد المهنة التي اختارها له أبوه ومقيّداً بمدارات التخلّف الذي يعيش عليه مواطنوه لذلك سرعان ما طرحها عن رأسه، وهرب منها ومن وطنه كلّه بعدئذٍ، وكتب هذه الرسالة الشعرية الممتعة وأرسلها إلى من تركهم وراءه من اصحابه ورفاقه في جمعية الرابطة الأدبية في النجف، واصفاً الجوّ الذي يعيش فيه، والمجتمع الذي قدر عليه ان يداريه، حين قال متسائلاً:

ههنـــا حيـــث لا يـــرى الـــشوقُ ... والحبُ طريقاً إلى قلـــوب العبـــادِ
ويفـــرُّ الـــصباحُ خوفـــاً مـــــن ... الاعين، حتى كأنهـــا مـــن قتـــادِ
وتلوح النجوم كالجثـــث الـــشوهاء ... حفـــت بهـــا ثيـــاب حـــــدادِ
حيـــث ينـــسى الفجـــر الطـــروبُ ... تثنّيه فيغريـــك انـــه مـــن جمـــاد
ههنـــا حيـــث يـــأنفُ الزهـــــرُ ... أن يبدي شذاه ان يغتلي في رمـــاد
كل شيءٍ ظامٍ إلـــى شـــعلةٍ رعنـــاء ... تنفـــي عنـــه ظـــلامَ الرقـــادِ

❖❖❖❖❖❖

أهنـــا ترتبـــي ؟! أهـــذي التـــي ... أنسلّت رهـــافاً من غمدها أجدادي
ومشت بالـــضحى يدفّقـــه القـــرآن ... تـــسقي الـــدنيا كـــؤوس الرشـــادِ
أهنـــا حيـــث أدمـــــنتْ نكـــــبةُ ... الإنسان من كأس حاضري وتلادي
ســـوف أحيـــا؟! أعـــيش دون ... انتظار لبعـــادٍ، أو شـــهقةٍ لمعـــاد
يا حياتي أركضي فقد ذبل النـــور ... وشـــلّ العنـــاء صـــوتَ الحـــادي
لـــن تنـــالي قبـــراً كبيـــراً يـــضمُّ ... الناس فـــي غيـــر هـــذه الابعـــاد

❖❖❖❖❖❖

أهنا بعد ديمة القبب الحمراء تروي تطلّعي وأعتقادي
وعيوني سكرى تَعُبُّ بلا وعيٍ رحيقَ الحياة من أولادي
ورفاقي الذين غربلت هذا الدهر حتى زرعتُهم في فؤادي
وانسياب الفرات كالشاعر الهيمان، لم يجن نشوة الميعاد
فتلوَّتْ به الاحاسيسُ وأنقضَّ هديراً مجنّحاً بالعناد
ذكرياتي اخطري فأنت بقايا الكأس من عمر نشوةٍ وحصادِ
سوف أحنو عليك أصنعُ من أسرابكِ الجانحات مائي وزادي
سوف أجلوكِ واحةً تتغنىّ في ذراها قصائدي بالبعاد
ودروباً أمشي بها مثقل العينين بالزهو من ربيعٍ جوادِ
وطيوراً أفر فوق جناحيها بعيداً عن غربتي في بلادي

❖❖❖❖❖❖

ذكرياتي لا يخجلنّك ان كنتِ عذاباً حيناً لقلبي الصادي
ها هي الذكريات أكمام أزهارٍ لديها طبيعةُ الاضداد
زوّديني بالحلو منكِ وبالمرّ اذا ما أقتربت من أسعادي
بحداءٍ يشدُّ خطوى إلى النور ويذكي على الطموح اتقادي
ونعيبِ يعدو ورائي يمنّيني بآهاتِ أعرقِ الحسّادِ
وليالٍ قد كان يُجبنُ حتى الفجرِ عن شلّ مابها من سهادِ
تتعاطى فيها وقد أنصت الليل كماتشتهى كؤوس الضاد
أو نخوض الأنام هذا جديبٌ أبكمُ ذهنُه وذلك شادي
وأعيدي حتى الجباه التي لاحتْ عليها كواكبٌ من سوادِ
وعثانينها الطوال وقد راحتْ تغذّي العيون بالألحادِ
وأرفقي بي أن تذكري أملاً نهباً، سيبقى شعراً بلا انشادِ
صوّري لي النديَّ يزخر بالآذان سالتْ لشاعرٍ صيّادِ

يتغنّى بالشعب حتى ترى ما بين الفاظه قبورَ الأعادي
ويثني بالدين فالأرض لا ترضى بمحرابها سوى الزهادِ
وينادي بكل ما يبعث التصفيق والحب من جموع الجراد
ثم ماذا.؟ لا شيئ . قد نسي السامر واستوحش النداء المنادي

وقد استثارت هذه القصيدة الجميلة الخالدة مشاعر وعواطف أحد أصحابه وكان قد أضطر هو الآخر ليعيش مغترباً مثله في وطنه ايضا لظروف مماثلة مرّت بهما ، فكتب هذه الابيات وأرسلها إليه مؤاساة له في غربته، وتعبيراً عن وفاءه له في كريم صحبته قائلا:

أيّها الظامئ المشوق إلى الناس إلى المخلصين من أصحابك
ايها النازح الغريب لقد شقّ على من تحب طول أغترابك
أنت يا من تعيش في وهج الذكرى ولم يبق غيرها في وطابك
أنت يا من تشكو جفاف لياليك وجَذب الحياة من حول بابك
لم يعد في الحياة شئ يسلّيك سوى ما ذكرت من أتعابك
رَفّةُ النور لم تَعُدْ مثلما كانت شعاعاً يرفّ في أهدابك
وهديل الهزار بُحَّ بأذنيك ومات الرنين في أعصابك
هكذا بئست الحياة اذا كان فراقُ الحياة جلّ رغابك
هكذا يا أبا وفاء..؟! لقد أرخص دمعي دمعٌ جرى بكتابك
قد شجاني ما أنت فيه وأبكاني فما بيَّ مثل الذي هو ما بك

❖❖❖❖❖❖

ذقت هذا الفراغ قبلك أعواماً وجرَّبت فيه كلَّ المآسي
فنفضتُ اليدين من كل اصحابي فيه، ومن جميع الناسِ
لم أجد بينهم سوى الحاقد المحموم قد عضَّ نابه لافتراسي
أو صديقاً تمكن الخوف منه فهو للحبِّ والصداقة ناسي
ويحه معشراً يواسيك حيناً ثم يرتد آسفاً ان يواسي

ثم ينـصبُّ مثلمـا يهـبط الـصخرُ عنيفـاً مـن عاليـاتِ الرواسـي
فـاذا الارض تحـتَ رجليـك نـارٌ واذا العـيش مثـل حـزّ المواسـي
كنت أهـوى تلـك العثـانين حتـى صـرتُ أشـتاق عمّتـي ومداسـي
غيـر أنـي بلوتهـا وتحسّـستُ ومـاخاننـي بهـا إحـساسي
فنفـضت اليـدين منهـا لأنـي مـا تعـوّدت ان طـأطئ رأسـي

❖❖❖❖❖❖

يا أخي لا يروعك الجدب في الصحراء مـا دمـتَ أنـت غيـر جديـبِ
فالـسماء التـي تظلّـك ان غامـتْ فقـد تنتهـي بغيـثٍ صـبيبِ
والغـروب الـذي تعانيـه لا بـدَّ لـصبح يأتيـك بعـد الغـروبِ
والـشتاءُ الجـديب سـوف يخلّـي الحقل يومـاً إلـى الربيـع الخـصيبِ
ولقـاء الحبيـب أجمـل فـي الـنفس اذا جـاء بعـد صـدٍّ الحبيـبِ
والليـالي العجـاف اخـصب للفكـر ولا سـيما لفكـر الاديـبِ
والوجـوه الـصفراء حولـك مهمـا ساء عينيـك مـا بهـا مـن شـحوبِ
هـي أحنـى مـن الوجـوه التـي خلفكَ فـي قبحهـا الاصـيل الرهيـب

وحين وصلته هذه الابيات من صاحبه الذي كان هو الاخر مغترباً مثله في وطنه في حينها، حيث ما كان يتوقع ان يتذكره صاحبه هذا دون بقيّة اصحابه، لما كان في وهمه عنه من اختلافٍ في الرأي معه في بعض قضايا الصراع الذي حصل في العراق بعد ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ م وذيولها، لذلك فقد أجابه بهذه الابيات العاطفية وكانت بعنوان :

(اعتـذار)

ألف عذرٍ (أبـا أيـاد) فقـد هـاجر مـن فـرط يأسـه أحاسـي
وتمـادى بـي الـضياعُ إلـى ان رحت أدعو قلبـي وألمـسُ رأسـي
لـست أدري حتـى بعينـي هـل حلّت على الصخر أم على جلاّسي

رقـدت كـل خـصلةٍ فـيَّ حتـى صـرتُ أشـتاق عَمتـي ومداسـي
وكتـابي ذاك الطويـل الـذي كان طريقـي إلـى لذيـذا النعـاسِ

❖❖❖❖❖❖

يا أخـي لـم يـزل لـشعراك ثغـرٌ ضـاحكٌ يطـردُ الكآبـة عنـي
ويعيـدُ الكـرومَ جـذلى العناقيـد وقـد أقفـرتْ بـصحراء فنـيّ
ويرينـي ضـوء الرجـال وقـد راح كثيـرٌ مـنهم يُلَيّـلُ ظنـي
شـعرك العبقـري نأفـذةٌ فيحـاء حلّـت علـى شـواهق سـجني
فرأيتُ العراقَ أحلامي الخضـراء حيـرى بـه تـساؤل عنـى
ورفاقي وهم على زورق الظلماء هـذا يُـدلي، وذلـك يجـني
وطنـي ههنـا يقولـون، يـا طـينُ تناهـب قلبـي، ويـاموت خـذني
هـا أنـا جـالسٌ يبعثـر أطفـالي حقـلاً مـن الزهـور بعـيني
ولعرسـي مـرَّ الـسحابة قلـبٌ طـافح بـالمنى ولحـظٌ يغنـيّ
وقبيلي بحرٌ من الاذرع السـمراء شـيّدت مـن دراريـه حـصني
غير أني اعيش في وحشة المأسور قد فـرَّ منـه حتـى التمـنيّ

❖❖❖❖❖❖

يا أخي (يا أبـا أيـاد) وهـل أبقـتْ ريـاحي غيـر النـداء بـدنّي
أي شـيءٍ يقـتاد قـلبي اذا لاح ضـياءٌ مـن العـراق بـذهني
أصـراعُ الحنـاجر الـصيد؟! هـل يغفـر ذنبـي اذا سـمعت المغنّـى
أم هـديرُ المثرثـرين أعـادوا بربيـع الألفـاظ جنـات عـدن
لـست أدري مـاذا يبـركن آلامـي ويقتـادني إلـى نـارِ حزنـي

أما من هو (أبو أياد) هذا ، الذي تذكره وراسله، وأعاد لعينيه (ضوء الرجال) ، وقد راح كثيرٌ منهم يليل ظنّه ، بما أكد له بأن الدنيا ما تزال بخير، وان السماء التي تظلّه ، والغروب الذي يعانيه والليالي العجاف التي تكتنفه، وان الشتاء الجديب سوف يخلّي الحقل يوماً إلى الربيع الخصيب، انه هو ذلك الصديق الذي كان في وهمهِ عنه أكثر من علامة أستفهام، وهو

باختصار شاعرنا المغترب مثله ايضاً في وطنه عن كثيرٍ من أخلاقيات مجتمعه (ابو أياد .. محمد حسين المحتصر) .

ولكن أو قبل لكن هذه من هو صاحب تلك الرسالة الشعرية الجميلة الذي عاش في النجف، وكانت عمامتهُ قلقةً على رأسه ، وكان كتابه الطويل طريق إلى لذيذ النعاسِ، انه الشاعر العربي، الشاعر بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صديقنا الشيخ محمد الهجري، السعودي الذي أضطرّ إلى الهرب بعدئذٍ من العراق خائفاً وفضّل العودة إلى وطنه سالماً بعد انقلاب (عبد السلام عارف) (في ردّة تشرين) سنة ١٩٦٣ م.

الحكاية السابعة

وظل الهجري يوالي رسائله إلى اصحابه في الرابطة الأدبية، وغير الرابطة ولم يفتر احساسه بكونه ظل مغترباً حتى في وطنه الذي ولد ونشأ فيه، وكان ان طوّح به قدره فرماه في قريةٍ نائيةٍ من قرى صحراء شبه الجزيرة العربية ليعيش مضطراً في ذلك الصقع البعيد ويستبدل بتلك الوجوه الباسمة التي عاشرها في العراق، وجوهاً عصرتها الصحراء حتى استنفذت كل حيوّتها ورونقها، وظلّ يدير طرفه فيما حوله، فلا يرى غير مبارك الأبل ومعاطنها ويرهف السمع فلا يصل إلى أذنيه غير رغائها وعواء كلابها ، وسرعان ما استحالت غربته إلى اغتراب، ووحدته إلى انزواء واستيحاش من الناس ، وطافت به الذكرى ذات يوم فحملته على أجنحتها إلى أيامه التي عاشها في العراق بين تلك النخبة الفاضلة من اصحابه وخلاّنه، وهم ينهلون من ذلك السحر اللذيذ، ويتطارحون روائع الشعر، ونوادر الأدب، فراح يقارن بين جوّه المترف ذاك وبين هذا الجوّ البدوي الغليظ الذي صار إليه، فلم يتمالك نفسه دون ان يذرف ما بقى في اجفانه من دموع، وما تصاعد في جوانحه من ألم جديد، واذا به يخط على الرمال مطالع هذه الابيات ثم ينتقل من مكانه باحثاً عن ورقة ليكتبها فيها ويرسلها اليهم قائلاً :

يا مـــن تغنّت حـولهم دجلـــةُ ... اغـصاننا غنّت عليهـا الكـلابْ

واســـتعجمت عيوننـــا فهـــي لا ... تُبـــصرُ إلا جمـــلاً أو ســـرابْ

ألـــم تـــزل هنـــاك فـــي أفقكـــم ... شميـــسةٌ ولـــو لنـــشر الثيـــابْ

وذاك لا أذكـــــر مـــا أســـمه ... يضيئ فـــي الليـــل زوايـا العتـــابْ

فشمـــسنا قـــد نـــسيتْ لونـــها ... وبـــدرنا يحثـــو علينـــا تـــرابْ

ونحـــن عـــدنا صـــورةً تحتمـــي ... اطلالهـــا بالـــذكريات العِـــذابْ

وحين وصلت رسالته هذه إلى جمعيّة الرابطة الادبيّة في النجف قررّ بعضُ اعضائها ان يكون الجواب عليها شعراً مشتركاً فيما بينهم على الطريقة التي تعوّدوها في المفاكهة والمزاح ، ولأنهم كانوا في وضع لا يحسدون عليه بسبب الاحداث التي مرت بالعراق بعيد ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ م وقد نالهم بعض رذاذها شرعوا بكتابة الجواب على الشكل التالي:

قال الأول منهم:

يـا مـن يعـاني مثلنـا الاغتـراب اليك مـن صـحبك هـذا الجـوابْ

وقال الثاني :

ان كنت ترجو الدفءَ مـن شمـسنا فشمسنا قـد أختفـت ف يالـضبابْ

واحـدنا اصبـح مـن يأسـه وخوفـه يرجـف فـي شـهر آبْ

وشرع الثالث في وصف ما انتهت إليه مجالسهم بعد (المدْ الثوري) الذي اجتاح الناس يومئذ وعصف بكل ما أطلق عليه في ذلك الوقت (مخلّفات العهد البائد) وكانوا من جملة ما عُصِفَ بهم في حينها، قال:

لا تـسألن يـا شـيخ عـن حالنـا فحالنـا .. انـا أكلنـا الجـراب

ثم ختموا الرسالة، وأرسلوها إليه في البريد.

ومن الجدير بالذكر ان الهجري هذا قد استطاع ان ينسجم بعدئذ مع محيطه الجديد، ويخضع للأمر الواقع، ويسعى لتركيز نفسه حتى اصبح من الوجوه المرموقة هناك، وأغدقت عليه الحياة بعطائها واتسعت اعماله ومسؤولياته وتحوّل من حالٍ إلى احسن حال.

ومع ذلك فقد ظلّ يحنّ إلى أيامه الأولى يوم كان يرفل بجبّته الفضفاضة وهيأته الروحانية متنقلاً من مجلس إلى مجلس، ومن ندوةٍ إلى أخرى، وكأن سيارته (الكاديلاك) ومكتبه الانيق، وشقّته الفاخرة، وتنقلاته المستمرة بين عواصم العالم، لم تساو عنده جلسةً من جلسات الرابطة، وساعةً من ساعات لقاءآته مع أصحابه فظل يحنّ اليهم، ويكتب لهم باستمرار ومشيراً إلى هذا المعنى في نفسه فاراد احدهم ان يمزح معه، فكتب إليه قائلاً:

ايُّ شـيءٍ تـشتاقهُ مـن مآسـينا ألـم تنـسى بعـدُ تلـك المآسـي

ثـروةٌ لـم تعـد تهمّـك حـتى رحت تـشتاق (جبّتـي ومداسـي)

يالـــه مـــن هـــوى لـــدينا غريـــبِ لـــيس تلقـــاه عنـــد بـــاقي النـــاس

هكـــذا نحـــن مـــا نـــزال مجـــانين ونبـــــقى نحـــــن للأفـــــلاس

وتذكرني حكايةُ هذا الزميل بحكايةٍ اخرى حصلت لأديبٍ نجفيٍ آخر، تماثل هذه الحكاية بوجهٍ من الوجوه تقريباً من حيث الشعور بالاغتراب، وعنف الشوق إلى الرابطة، ومجالسها التي كانت مجال تظرّفهم ومفاكهاتهم ايضاً وهي:

لقد تهيأ للمرحوم السيد محمود الحبوبي في أيامه الاخيرة ان ينتقل إلى بغداد، ويسكن فيها، ويفارق ذلك المجلس الحبيب إلى نفسه، وكان المتوقع ان يجد في مغربات بغداد ما وجده الشاعر علي بن الجهم من قبله، فينسى أو يتناسى جفاف حياته النجفيّة، غير انه على ما يبدو قد عاش هناك مغترباً، لا عيون إلهها، ولا خضر الرياض، ولا الصباحات النديّة، ولا مساء بغداد الساحر، كان يعادل عنده حفنة رملٍ من صحراء النجف، أو يعوّضه عن ساعةٍ واحدة من ساعات الرابطة، أو يشيع في نفسه من البهجة ما تشيّعه نظرةٌ ذكيّة خاطفه من عين (ابي موسى) الشيخ اليعقوبي، وصاحبه الجعفري، فكتب اليهما متشوقاً قصيدةً جاء فيها هذان البيتان:

اشهى اليَّ من الرصـــافة والمهـــا ومن الرياض الخضر صحراء الغري

ومن العيـــون ســـواهياً وســـواجياً عينا (أبي موسى) و عين (الجعفري)

وحين وصلت تلك القصيدة اليهم، تلاقفها الحاضرون في الجمعيّة واخذوا في تشطيرها وتخميسها، كما هي عادتهم في مثل هذا المناسبات وهذه واحدة من تشطيراتهم عليها :

اشهى أليَّ من الرصـــافة والمهـــا بلدي، ومن فيه، وإن يـــكُ (بربـــري)

وألذُّ لـــي مـــن دجلـــةٍ وصـــباحها ومن الرياض الخضر صحراء الغري

ومن العيـــون ســـواهياً وســـواجياً تـــرنو أليَّ بعين جـــؤذر أحـــورِ

عينـــان لا أبغـــي بـــديلاً عنهمـــا عينا (ابي موسى) وعين (الجعفـــري)